والجارحة كما قلنا هى التى تعمل ليكسب الإنسان . إذن فقد جاء لنا الحق بكل حالات اليقظة والنوم والموت والبعث . ولكل حالة قانونها ، ونحن نعرف قانون اليقظة وقانون النوم لأننا نتعرض لهما ، فإذا قيل لنا : إن هناك قانوناً للموت فنحن نقيس ذلك على ترقى القوانين من اليقظة إلى النوم ، وعندما يقال لنا : إن هناك بعثاً فنحن نصدق أيضاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

والقاهر هو المتحكم بقدرة فائقة محيطة مستوعبة . ولقائل أن يقول : مادام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصى العاصى؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصى . ولكن الحق أوجد فى الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذى خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شىء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر ، ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التى تحدث له وإن تمرد على منهج الله ؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذى أودعه فى الإنسان .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم . فيقول :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وقد يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة مثل قوله هنا :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إنّ المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت . لكن الذى يتكلم بضمير الغيبة لابد أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير . وحين يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير الغيبة فإنه - سبحانه - يريد أن يبين لنا أنه فى أجلَ مجال المشاهدة والحضور ؛ فكأنه إذا قال « هو » لا تنصرف إلا إلى ذاته العليا ؛ فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

وسبحانه يقول : « هو » قبل أن يذكر المرجع ، وهو « الله » ؛ مع أن الأصل فى المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

فكأنه إذا أُطلِق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحين يتكلم بضمير التكلم نراه يتكلم عن ذاته بضمير الإفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه).

ويقول مرة أخرى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ (سورة الحجر)

لماذا ؟ . إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله نجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبرازه ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ (سورة الحجر)

فالتنزيل فعل ، والفعل يقتضى صفات متعددة . فلا بد أن يأتى بضمير التعظيم وهو الجمع ؛ لأن كل صفات الكمال متجلية فى التنزيل . ولكن إن تكلم عن الذات فى التوحيد لا يأتى بضمير الجمع أبداً ؛ لأنه يريد أن تنفى عن ذاته أنه متعدد ؛ لأنه هو الواحد الذى لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. ⑭ ﴾ (سورة طه)

وحين يتكلم عن الذكر يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ... ⑨ ﴾ (سورة الحجر)

ففى مجال التعظيم والتنزيل الذى يتطلب تجلى كثير من صفاته - جل شأنه - يأتى بضمير الجمع ، وفى التوحيد والتفرد ونفى الشريك يأتى بضمير الإفراد .

هنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .. ⑥١ ﴾ (سورة الأنعام)

وكلمة « قاهر » إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففى ذلك

ميزانان بين مجالين . ومادام هو قاهراً ففى أى مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثانى مقهوراً له ؟ إننا نعلم أن كل شىء فى الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنى فأفقر ، وقهر الفقر فأغنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكل شىء فى الوجود مقهور لله حتى الروح التى جعلها الله مصدر الحس والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه على المكان الذى لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح فى الجسم هى المسيطرة ، لكن مَن ينقض البنية التى تسكنها الروح يُذْهِبُ الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر المادة بالروح ، فيأخذ الروح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويتحول الجسم إلى رمَّة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر المادة ، ولا توجد متقابلات فى الوجود عالية ومتأبية ومتمردة عليه ـ سبحانه ـ :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

والقاهر هو المتحكم بقدرة شاملة على المقهور . وانظر أى تقابل فى الحياة تجده مدينا وخاضعا لصفة القهر . «وهو القاهر فوق عباده» وكلمة «فوق» تقتضى مكانية . ولكن المكانية تحديد ، ومادام القهر يتطلب قدرة فهل يعنى ذلك أن القادر لابد أن يكون فى مكان أعلى ؟ لأننا نجد ـ على سبيل المثال ولله المثل الأعلى ـ من يضع قنبلة تحت العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضى الفوقية المكانية ، إذن فالفوقية المرادة هى فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما تكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوضحنا أن نلتزم بإطار « ليس كمثله شىء » فهو ذات لا ككل الذوات . وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك نأتى ونقول فى فعله ، وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل جزئية من الفعل تحتاج إلى جزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلى زمن ؟ لا ؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العملية ، إنما يفعل سبحانه بـ « كن » ، إذن القهر فى قوله : « وهو القاهر فوق عباده » هو قهر الاستعلاء .

ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة لآخر رمضان » .

ففى أية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التى تشرق الشمس فيها فى مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن ، فكل واحد من المليون من الثانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، باسطا لك ولغيرك يده .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأن يده مبسوطة فى كل زمان وفى كل مكان وليس كمثله شىء .

« وهو القاهر فوق عباده » . وعباده من مادة العين والباء والدال ، ومفردها « عَبْد » ، وجمعها يكون مرة « عبيدًا » وأخرى « عِبادًا » . و« العباد » هم المقهورون لله فيها لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضا المنقادون لحكم الله فيها لهم فيه اختيار ؛ لأن الإنسان مقهور فى بعض الأمور ولا تصرف له فيها : لا تصرف له فى نَفَسه ، ولا تصرف له فى نبضات قلبه ، ولا تصرف له فى حركة المعدة ، ولا تصرف له فى حركة الأمعاء ، ولا تصرف له فى حركة الحالبين ، ولا تصرف له فى حركة الكُلْيَة ، وكلها مسائل تشمل المؤمن و الكافر ، والكل مقهور فيها .

إن من رحمة الله أننا مقهورون فيها ولا رأى لنا ؛ لأنه لو كان لنا رأى فى مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظم عملية تنفسنا فى أثناء النوم ؟ . إذن فمن رحمة الله أن منع عنا الاختيار فى بعض الأمور التى تمس حياتنا . ومن رحمة الله أن كلا منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمى الطعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل ؟!! .

إذن فكل أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذى لك فيه اختيار فهو مناط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : « افعل » إلا وأنت

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى فى التوبة ، ورواه النسائى فى التفسير

صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك « لا تفعل » إلا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختيارية هى التى وردت فيها « افعل » و« لا تفعل » . وهى الأمور التى فيها التكليف . ومن يطع ربنا فى منهج التكليف يصبح وكأنه مقهور للحكم ، ويكون ممن يسميهم الله «عباداً» ، فكأنهم تنازلوا عن اختيارهم فى الأحكام التكليفية ، وقالوا : يارب لن نفعل إلا ما يريده منهجك . وكل منهم ينفذ حكم الله فيما له فيه اختيار ألا ينفذه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . .(٥٣) ﴾ (سورة الزمر)

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلَـٰمًا (٦٣) ﴾ (سورة الفرقان)

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم فى الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفّ به ، وهم فى الأمور التى لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أمّا المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدَ فى القرآن وهى التى تثير بعض الجدل فى مثل هذا الموضوع . ساعة يقول الحق سبحانه وتعالى عما يحدث فى الآخرة :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاَءِ . . . (١٧) ﴾ (سورة الفرقان)

وكأن « عبادى» هنا أطلقت على الضالين ، ويقول : نعم ؛ لأن الكل فى الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن فى الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمردون فى الاختيارات .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

ومع مجيء معنى القهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القهر يعنى الغلبة والتملك والسيطرة والقدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول فى موقع آخر :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن ؛ لأن الضعيف حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفى هذا تذكير للقوى نسبياً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوى عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، وتمتنع عنه العقوبة ، وفى ذلك رحمة له .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وجاء معنى « الحفظة » فى القرآن فى قوله الحق :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾

(سورة ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أى ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فهماً للمعانى الغيبية ، وإن كانت المعانى الغيبية التى نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع ، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربنا فآمنا بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب . ولذلك قال الحق :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالمشهد فما الفرق ـ إذن ـ بين الناس ؟ إن الإيمان فى كماله وقمته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . وحين ننظر إلى البشر ، نجدهم يتفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض فى صفات وقدرات ، وكلما تقدّم الزمن عرف الإنسان سِراً من أسرار الله يترقى به . وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً فى حجم الساعة ، ثم صنعوا آخر فى حجم «فص الخاتم» ، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، ويبثرونها فى أى مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قويت قدرة الصانع دقت الصنعة . فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذى صنعته أنت بجانب دقة صنعة الله ؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتى بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم وستحصى عليك أعمالك وهم غيب فقل على العين والرأس ، وسبحانه القائل :

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الانفطار)

وهنا يقول الحق :

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما أراد العلماء أن يعرِّفوا الموت قالوا: الموت سهم أرسل ، وعُمرُك بقدر سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن عمرك يُقدَّر بمقدار سفره إليك ، وحين يقول الحق : « حتى إذا جاء أحدكم الموت » فهو ينسب الموت لمن ؟ . لقد أبهم الله زمانه ، وأبهم مكانه ، وأبهم سببه ، وأبهم قدره ، وهذا الإبهام هو أشد أنواع

البيان؛ لأنه مادام قد أبهمه في كل هذه الأمور يجب أن نستعد للقائه في كل زمان، وفي كل مكان، وبأي سبب.

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث في أي سن، فإبهام الحق له هو أكبر بيان؛ لأنه سبحانه لو حدده زماناً أو مكاناً أو سناً أو سبباً؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت، لكن الحق شاء هذا الابهام وهو أقوى أنواع البيان، ليلفتك ويحثك على أن تنتظره في أي زمان وفي أي مكان وبأي سبب وفي أي سن، وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً، ولذلك تخشى ارتكاب أي ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ.

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصلّه، قد تقول: إن وقته ممتد، وتجد من يقول لك: اضمن لي انك ستعيش إلى أن ينتهي وقت الظهر. ولذلك يقول النبي ﷺ: عندما سأله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائلا: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[1].

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت. ولذلك عندما نقول: إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك؛ لأن البعض يقول: ولماذا لم يبين الله لنا ذلك؟ ودائماً أقول: لقد أوضح الله ما أبهم، فإن الإبهام هو أقوى بيان، ألم نر إنسانا ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة فكان الطبيب سبب موته؟ لقد رأينا ذلك. لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن قدر الله قد نفذ فيه. ولذلك قال شوقي - رحمة الله عليه -:

أسد لعمرك من يموت بظفره عند اللقاء كمن يموت بنابه

إن نام عنك فكل طب نافع أو لم ينم فالطب من أذنابه

(١) رواه البخاري ومسلم

فقد يخطيء الطبيب - مثلاً - فى إعطاء حقنة فتنتهى الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما تأتى كلمة « توفى » تجدها فى القرآن دائرة على ثلاثة ألوان : اللون الأول هو قول الحق :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ (من الآية ٦١ سورة الأنعام)

سبحانه - إذن - ينسب الموت له ولملك الموت ، ولرسله .

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت ؟ إنهم جنوده ، فلا أحد يميت دون إذن من الله ، فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة وواسطة ، وإلى الرسل تنفيذاً .

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (من الآية ٦١ سورة الأنعام)

من أين يأتى التفريط ؟ لقد تقدم فى هذه الآية شيئان اثنان : حفظة يحفظون

عليك تصرفاتك وفعالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً . وهؤلاء الملائكة لا يفرطون في هذه المهمة أو تلك . وحين ننظر في مادة الـ « فاء » ، والـ « الراء » والـ « طاء » نجدها تأتي مرة « فرّط » ، ومرة « أفرط » . ومن العجيب أنها تأتي للمتقابلين ؛ ففرَّط في الشيء أي أهمله ، وأفرط في الشيء أي جاوز الحد والقدر في الحدث .

وهنا يقول الحق سبحانه : « وهم لا يفرِّطون » أي لا يهملون ولا يقصرون . وفي إحدى قراءات القرآن نجد من يقرأ : « لا يفرطون » بالتخفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجد الحق يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ (سورة الأعراف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ (٦٢) ﴾

وكلمة « ردوا » تفيد أن كان لهم التقاء به أولا ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف ؟ لقد كانوا منه إيجاداً ثم ردوا إليه حسابا ثوابا وعقابا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ... (٥٥) ﴾ (سورة طه)

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكلمة « مولى » تعني أنه هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك . وهذا القريب قد يكون منْجدا لك إن حدث لك ما يفزعك وهو الذي يُعينك ، وهكذا أخذت كلمة «مولى» معنى القريب ، والناصر والمعين الذي تفزع إليه في شدائدك ، وقد يوجد لك مولى في الدنيا وهو من الأغيار . ومن الجائز أن يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أن تنالك الأحداث التي هي فوق قدرته

وطاقته، ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ؛ لأن خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فيقف بجانب خصمك وقد يوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك فى الآخرة مولى حق واحد « وردوا إلى الله مولاهم الحق » وتطلق كلمة « مولى » على السيد حين يعتق عبده . وحين يعتقنا ربنا من النار أليس فى ذلك أعظم ولاية ؟. إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ؛ لأن الأغيار من طبيعة الخلق .

وحين يطلب منك الحق أن تُعمل عقلك لأنك حين تعتمد على واحد ينفعك فى أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهنا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحىّ الذى لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأغيار فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلّ عنك . أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم » . ولماذا جاء بكلمة « الحكم » هنا ؟؛ لأننا فى دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه ؛ فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتعيينات ، وكلها أحكام ، أما فى الآخرة فالحق يقول :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وأنت فى الدنيا تملك ، ويكون رزق ابنك ـ على سبيل المثال ـ من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تخيط الثوب لغيرك إن كانت تلك مهنتك ، ففى الدنيا كل منا يملك بعضاً من أسباب الآخر . لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وساعة تسمع « ألا له الحكم » فـ « ألا » فى اللغة أداة تنبيه لما يأتى بعدها ، ولماذا

تأتي أداة التنبيه هنا؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم. والكلام - كما نعرف - واسطة بين متكلم ومستمع ؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره ومطلوباته إلى السامع. وهو قبل أن يتكلم يدير الأمر في رأسه : أيتكلم أم لا؟ لكن السامع يفاجأ بكلام المتكلم، والمتكلم قبل أن ينقل خواطره توجد في خياله نسبة ذهنية، أي أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم، أما السامع فهو يفاجأ، وعندما تريد أن تقول أمراً مُهمًّا فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تفلت منه أية جزئية من كلامك، فتقول : «ألا» لتشد انتباه السامع تماما. والحق هنا يقول: «ألا» ليأخذ انتباه السامع، ويأتي بعدها قوله : «له الحكم».

إذن : ساعة تسمع «ألا» فاعرف أن فيها تنبيهاً لأمر قادم «ألا له الحكم».

والحكم : هو الفصل بين أمرين، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف الحاكم ؛ فإن كان الحاكم له هوى فالحكم يميل، لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى، فالحكم بالميزان يقتضي أن تكون له كفة هنا وكفة تقابلها، وساعة ما نضبط الميزان نحاول أن نوازن الكفتين لنفصل بين مسألتين ملتحمتين، ومادمنا نريد التساوي فنحن نسمي ذلك : الإنصاف، أي أن نقف في النصف دون ميل أو حيْف.

«ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين» وساعة يسمع إنسان «ألا له الحكم» فالواحد منا يعلم أنه سبحانه يحكم بين الخلق بداية من آدم إلى أن تنتهي الدنيا، وكل واحد منا تتشابك مسائله مع غيره، ومادام لله الحكم فليس لغيره معه حكم، ويحكم بين الخلق جميعا وفعله لا يحتاج إلى زمن، ونتذكر هنا الإمام عليّاً - كَرّمَ الله وجهه - حين قالوا له : كيف يحاسب ربنا الناس جميعا في وقت واحد، وبمقدار حلب شاة كما قال بعضهم؟ فقال الإمام عليّ : «كما يرزقهم في وقت واحد يحاسبهم في وقت واحد»، وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً. وقديماً عندما كانوا ينيرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج : هنا مسرجة، وهناك مسرجة، وعلى البعد مسرجة ثالثة، وكان الوقاد يمشي ليشعل المسارج.. إلخ، وارتقى العقل البشري المخلوق لله واستطاع أن ينير الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفي وقت واحد.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المتعب للخلق أن تأتى الظلمة وتكون فى مهمة النور ، وأن يأتى النور فى مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور دور ومهمة فى الحياة . ولذلك قلنا فى أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لنتلمس القول الحق ، ولنعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعى مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذى يعيننا على السعى على أمور حياتنا ، ويتطلب السعى طاقة ، ولا يمكن أن تأتى الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة ؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذى يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشىء الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه - سبحانه - يريد متكاملا يعين متكاملا ، فلا شىء يهدم شيئا مقابلاً له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الليل)

وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدى مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأُدِّيَت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسْع

الناموس أو البراغيث ، أو من ضجيج وخلافه ، ولم ينم ، ثم فى الصبح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما يقولون « مذهول » .

إذن فمن أجل حركة الضوء لابد أن توجد الظلمة :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

الليل والنهار - إذن - نعمتان ، وكل نعمة تساوى الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندها ، لا . لقد جاءت كل منها لتساند الأخرى . وفى سورة الليل يتابع الحق :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة الليل)

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين لتنجح الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . ومادام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن خلطت المهمتين ينتج الفساد .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

ويقول الحق هنا :

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ ﴾

(سورة الأنعام)

والظلمة - إذن - هى عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهى ظلمات متراكمة ؛ لأن الظلمة

إذا ما غُشيت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : « ظلمات البر والبحر » ، وحتى نعرف أهي ظلمات حسّية أم ظلمات معنوية لابد لنا أن نعرف الظلمة فى معناها الحسى ، إنها ما يؤدى إلى عدم الاهتداء إلى الحركة المنجية ، إذن فكل أمر يؤدى إلى عدم الاهتداء ـ حسّياً أو معنوياً ـ هو ظلمة ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة يسير فى أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التى يصعب على الناس أن يعرفوا طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسّية أم معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمور الحسّية ، والمراد بالظلمات هنا هى الأحداث والكوارث والنوازل التى تضيق أسباب البشر عن النجاة منها . والإنسان حريص دائماً على نفع نفسه ، وتظهر التناقضات فى أفعال إنسان عن أفعال إنسان آخر لاختلاف كل منهما فى تقييم وتقدير النفعية . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذى يذهب صباحاً مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدى واجبه ، ويخرج من لذيذ الكسل ليجد لذة فى العمل ، إنه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذى ينام ويوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع فى الطريق ، مثل هذاالتلميذ يحب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التى تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذى يتبوأ المكانة اللائقة به .

والمثال الواضح أيضاً فى الريف هو الفلاح الذى يقضى وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التليفزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا رى ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التى يفلحها محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذى يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينتظم فى ريها فى المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها ؛ لأن الذى أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحقُّ الرزقَ الوفيرَ . أما الذى يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذى أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان فى الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكنْ هناك اختلاف فى تقديرالنفعية بين إنسان وآخر ، والعاقل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها . وهاهوذا المتنبى الشاعر العربى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهامًا بها صبّا
فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حب الشجاع لنفسه - إذن - جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد فى سبيل الله ، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية . فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث نرى نفعيته وهى تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزّت أسباب البشر وكان غافلاً عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالقه فيقول : « يارب » ، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصاً . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله وتمرد على ربّه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله فى وقت الشدة ، فإن انجاب وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

(سورة الإسراء)

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهى أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم . بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم . فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح ، وتختل آلاتها لا تجد إلا كلمة : يارب . يارب . يارب على ألسنة كل ركابها بداية من « القبطان » والقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمتم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة أن تضطرب طائرة فى الجو ، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : « ضل من تدعون إلا إياه » ودعوة الإنسان ربّه ومولاه هي الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين ؛ أمر يبسط ويسعد الإنسان ، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فأما الذى يبسط ويسعد فهو إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرضى . وأما الذى يضيِّق على الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو .

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده ، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول : « الله » . وهى صيحة التقدير والتقديس لله الذى أعطاه موهبة إتقان العمل . وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته : « يارب » . إذن فلا ملجأ إلا إلى الله .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التى لا بد أن يقررها السامع لهذا السؤال وهى : إن الله هو المنجى من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هى التى ستغلب على ألسنة الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجى من ظلمات البر والبحر . والكون ـ كما نعلم ـ إما بر وإمّا بحر . ولقائل أن يقول : ولكن هناك كوارث جديدة فى عصرنا هى كوارث الجو . ؟

ونقول : يجب أن تفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه . فجو البر من البر ، وجو البحر من البحر ، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة فى المسجدالحرام ؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو فى الدور والطابق الأول أو الثانى أو الثالث من المبانى المقامة كمسجد حول الكعبة . ونلحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المبانى التى حولها . والمصلون يتجهون فى صلواتهم فى تلك الأدوار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس أيضا ، وجو الحرم من الحرم .

ومثال آخر هو السعى بين الصفا والمروة ؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة فى الدور الأرضى ، وهناك الآن دور ثان أقيم للسعى . وهكذا نرى أن جو المسعى

مسعى أيضاً . وقديماً كان محرّماً على الطائرات أن تطير فى جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم فى الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم فى أجواء مكة والمدينة المنورة .

فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية » إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضى طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوبا منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله . والمطلوب هو الشيء الذى تتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفى اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لى » ، نجد الذى استذكر دروسه دون تفقه يقول : « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه فى فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هى فعل دعاء ؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوى للمساوى فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيطه الكوارث والأحداث والنوازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ، هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتثال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . . . إنه السؤال بتضرع وخضوع . والتضرع يقتضى قولاً ، ويقتضى فعلاً ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات .

ويخطىء من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يربط ذلك بفعل . فعندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفى لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون

فى قلبه ذرة من نفاق ؛ لأن الحق يقول : « تدعونه تضرعاً وخفية » . والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس فى ذلك رياء ؛ لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلاّ الخالق البارىء ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوربية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت فى قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ وبينما هى تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلاناً عن مقدم سعد وحذيفة وقالا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيطه ، ثم نزل عليه الوحى بهذا القول الكريم :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة فى أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية . والدعاء - كما علمنا - يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر فى قوله الحق :

﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

فكلمة (تدعونه) : قول و(تضرعا) : فعل لأنه خشوع وخضوع ـ و(خفية) : انكسار القلب وخشيته و« أنجانا » تدل على التعدد ؛ لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضا قوله : (قل الله يُنَجِّيكم) يدل على التكثير ، أى أنه لا ينجّى مرة واحدة ولكنه ينجّى لمرات كثيرة . ويأتى لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجّينا إما بتكرار النجاة أو بتعدى النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجى الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطالب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجّى الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة . وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر فى نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه فى أى حالة من حالاته ـ سواء أكان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً ـ حتى يكشف الله عنه هذا البلاء ، وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وسبحانه ـ هنا ـ يُذكّر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر فى البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا لله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجحود بنعمته سبحانه .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينجِّيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية فى البر البحر ، وسبحانه بعلمه الأزلى يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا أطلقت تقترن بالخسارة .

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العصر)